

عن تأكل جيل المثقفين أصحاب الرسائل في مصر

الاثنين 15 سبتمبر 2008

بقلم - محسن خضر
أكاديمي مصري.

غيب الموت خلال السنوات الأخيرة في مصر مجموعة من أهم مثقفيها المستنيرين، وهو ما يؤذن إلى تأكل جيل أو أكثر ذي سمات مشتركة يثير عدة دلالات.

رحل أخيراً السينمائي والمؤرخ البارزان يوسف شاهين ورؤوف عباس، والمفكر المعروف عبد الوهاب المسيري، والناقد سامي خشبه خلال أيام، ومن قبلهم رحل الباحث والناشط الطلابي والاجتماعي احمد عبد الله رزة، والكاتب المسرحي الفريد فرج، والكاتب فتحي عبد الفتاح، ورجاء النقاش، والناقد والكاتب احمد عباس صالح والناقد الأدبي على الراعي، والأكاديمي والناقد عبد العزيز حمودة، ورفيقه سمير سرحان.

هذه القائمة قد تثير مسألة المجادلة، وان كنا سنتجاوز غوايتها الجدلية، للتأمل في دلالة رحيل هذا الجيل أو الأجيال من المثقفين المصريين الذين اشتركوا في سمة أساسية من ناحية المرحلة التاريخية التي عاشوها، فأغلبهم تفتح وعيه، وتعلم في الحقبة الملكية، حيث كانت قضية الاستقلال تنصدر العمل السياسي في مصر، وتمنعوا إلى حد ما برحابة الفضاء الليبرالي في الأربعينات خصوصاً.

وحيث كان بوصلة النضال السياسي والفكري موحدة الاتجاه تجاه قضيتي التحرر الوطني والحرية السياسية في الداخل، مع تفاوت في وزن الاهتمام بالمسألة الاجتماعية، كما شكل هذا الجيل قدام السببكية المجتمعية في الحقبة الناصرية باشكالياتها المتوترة بين صدارة مسألة العدالة الاجتماعية، وتآزم أو التضيق على الحريات السياسية لصالح الأولى.

ولكن نجحت القيادة الناصرية في بلورة حزمة من القضايا الكبرى التي ضبطت الحياة الثقافية، والسياسية إلى حد كبير في مقدمها التغيير الاجتماعي، وبلورة طبقة وسطى، والانحياز إلى المهمشين، والانتصار للعدالة الاجتماعية من خلال حزمة من السياسات المتشابهة في الاقتصاد، والتعليم، والصحة، والتوظيف، والإسكان، وسوق العمل وهو ما أدى إلى حد كبير إلى تأميم النضال الاجتماعي لمصلحة سلطة الثورة. وراكم ذلك بروز قضية التحرر الوطني، والنضال القومي من خلال المبدأ الوجودي، ونصرة استقلال شعوب العالم الثالث، ووحدة الثورة العربية الإفريقية، والتنشير لمبدأ عدم الانحياز في الصراع الدولي.

كما شهدت هذه الكوكبة من المثقفين التبدل الحادث في الحقبة الساداتية، والتي وقف اغلبهم في مواجهتها يعارضون توجهات النظام الجديد الذي انقلب على الأولويات والرؤى الناصرية متبنياً عكسها، وان توسط هذا العقد حدث جلل هو حرب 1973 بكل تبعاتها، وعزز هذا التحول في ما حدث من تبني سياسة التسوية مع إسرائيل، والانفتاح الاقتصادي الملتبس، والتعددية السياسية المقيدة والتي خاصمت أكثر المثقفين اليساريين والناصرين والقوميين والإسلاميين.

صحيح أن بالقائمة السابقة استثناءات اختاروا العمل من داخل المؤسسة الثقافية الرسمية مثل سمير سرحان وسامي خشبه، وان اختلف حجم التأثير والوعي بالمرحلة.

كان هذا الجيل /الأجيال من أصحاب القضايا الكبرى سواء في الحقبة الليبرالية أو الحقبة الثورية، أو الحقبة التالية، واغلبهم انطبق عليه المثقف الرسالي، التنويري، أو العضوي وخصوصاً اليساريون منهم والذين ابقوا على مسافة ما بينهم وبين مؤسسات الدولة، وناصروا الأحلام الكبرى في العدالة الاجتماعية، والحرية السياسية، والوحدة العربية، ومعاداة الاستعمار الصهيونية، وبعضهم اختار المنفى في الخارج عند اصطدامه بالسلطة

الساداتية، أو التعرض للاعتقال في الحقبة الناصرية، أو الاضطهاد في الحقبة الساداتية، أو التهميش في حقبة تالية.

أقارن ظاهرة تآكل هذا الجيل الطليعي، والرسالي، والمقاوم، والمهموم بقضايا الوطن والأمة والإنسان، باهتمامات أجيال تالية ستفرز مثقفها في حقبة امتدت طيلة السنوات الثلاثين الماضية، وشحبت فيها القضايا الكبرى التي تبنتها وجيشتها الأجيال السابقة. صحيح أن مصر ولادة، لكن الأصح أن الإطار المجتمعي واللحظة التاريخية تفرض شروطها على تكون الوعي الفردي والجمعي، ورؤية العالم لدى أعضائها.

ومع كل مثقف رسالي أو طليعي يغيبه الموت، لن يملأ مكانه نظير مشابه في الوعي والانحياز والاهتمام بين أجيال كانت أسوأ حظاً وأضعف وعياً وأشحد ثقافاً سواء من حيث اهتمامات العمل الوطني، وأجندة النظام، وكفاءة مؤسسات تكوين الوعي والوجدان من تعليم متراجع، وإعلام موجه، وثقافة استعراضية واحتفالية، والأخطر عصر كامل من الإحباط القومي والانكسارات العربية المتتالية منذ كامب ديفيد وحتى سقوط بغداد، وحصار السودان، وتفتت لبنان واليمن والصومال.

الفراغ الكبير الذي يتركه رحيل جيل الطليعة والاهتمامات الكبرى من المثقفين المصريين يؤذن بتراجع ثقافي على المستوى القومي آخذين في الاعتبار الوزن الثقافي المصري، وهو ما يدعو للقلق حول مصير الثقافة المصرية والعربية خلال العقود المقبلة، ومع عطب مولدات الوعي والاستنارة المعاصرة سواء على المستوى الرسمي أو مستوى التنشئة المجتمعية - كما أسلفنا من تعليم وإعلام وسياسات ثقافية ومجتمع مدني، ونقابات معطلة وأحزاب محاصرة وقيادات مختارة لحظواتها (أهل الثقة) لا لأهليتها.

<http://elbashayeronline.com/index.php?page=viewn&nid=16322>